ذاكرة العرب

مجلة ربع سنوية - العدد الأول - يناير ٢٠١٩

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

SPecial Projects
إدارة المشروعات الخاصة

الفهرس

تقديم	٣
نخل العراق	٤
النقود العربية في العصر العباسي	١٦
سيدة الغناء العربي أم كلثوم في أبوظبي	٣٦
أغنية صنعاء	٥٠
ملف خاص	
– زينة الخيول الأشورية وسروجها	٥٢
– ركوب الخيل في العصر العباسي الأول	٦٠
– مضمار وسباق الخيول في سامراء	٦٤
– أدب الفروسية في العصر المملوكي	٧٤
– إسطبلات أمراء المماليك بالقاهرة والعناية بالخيل	٩٨
– الأفراس المؤسسة للمرابط المصرية	١٠٨
– العقيلات ووجودهم في مضامير الفروسية في مصر	١٢٤
– نخبة عقد الأجياد في الصافنات الجياد	١٣٦
الحكاية الفلسطينية	١٤٠
تِطوان: المدينة الأندلسية في شمال المغرب بين الحاضر والماضي	١٤٢
سليل البوعبديل	١٤٨
البريد والطوابع في لبنان	١٥٦
ذاكرة العرب	١٦٤

المشرف العام
مُصْطَفى الفِقي
مدير مكتبة الإسكندرية

رئيس التحرير
خَالِد عَزَب

سكرتير التحرير
سُوزَان عَابِد

المراجعة والتصحيح اللغوي
فاطِمَة نَبيه
مُحَمَّد حَسَن

التصميم الجرافيكي والخطوط
الحَسَن عِصَام
خَالِد مُصْطَفى

الإسكندرية، يناير ٢٠١٩

نخل العراق

بقلم: الدكتور عبد الإله عبد القادر

مصر تحتل المركز الأول عالميًّا في زراعة النخيل، إلا أن مصدر النخلة هو العراق كما يشير المؤرخون؛ إذ بدأ يزرعه قرابة عام ٤٠٠٠ ق.م، وبدأت مصر قرابة عام ٢٠٠٠ ق.م، في حين زرعه السومريون في وادي الرافدين قرابة عام ٣٠٠٠ ق.م. وقد جاء ذكرها عند حمو رابي في مسلته المشهورة، في سبع مواد من قوانينه؛ هي المواد (٥٩، ٦٠، ٦٤، ٦٥)، إلا أن البابليين زرعوها في بابل قبل ذلك قرابة عام ٤٠٠٠ ق.م، وكانت المدينة التي ظهرت فيها رسوم وآثار النخل هي أور. ويقال إن النخلة كانت ضمن مقدسات الأشوريين، فقد كانوا يقدسون المحراث، والثور المجنح، والشجرة المقدسة، ونخلة التمر.

صورة الخلفية تظهر فيها مقبرة حزقيال (ذو الكفل)، في مدينة الكفل العراقية.

وفي عصر التوراة يقال إنها كانت معروفة في فلسطين، وصور، وصيدا؛ وهذا ما يفسر لنا الآية الكريمة ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾﴾ سورة مريم، الآية ٢٥. والنخلة شجرة مباركة فمجموع ما ذكر في القرآن عن التمر والنخيل ١٧ سورة و٢٢ آية، منها:

﴿وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ﴿١٤٨﴾﴾ (سورة الشعراء، الآية ١٤٨).

﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ﴿١٠﴾﴾ (سورة ق، الآية ١٠).

﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ ﴿٦٨﴾﴾ (سورة الرحمن، الآية ٦٨).

﴿وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾﴾ (سورة عبس، الآية ٢٩).

ولأنها مباركة فقد قال رسول الله ﷺ: (أكرموا عمتكم النخلة؛ فإنها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم؛ وليس شيء من الشجر يلقح غيرها). فالنخلة لا يترك منها شيء بلا فائدة، فتؤكل ثمرتها[١]، (الرطب والتمر) ويستفاد من سعفها وجذوعها في بناء بيوت الفلاحين؛ وجذعها يستعمل جسورًا لعبور السواقي الصغيرة المتفرعة من شط العرب (الشاخات)[٢]؛ والنوى إما كغذاء يستفاد منه للأبقار وإما وقود للخبز وإما التدفئة، وخوصها وجذوعها لعمل الأسرّة والكراسي والأقفاص والحصران.

بلاد الرافدين كانت تسمى أرض السواد لكثافة غابات النخيل فيها حتى إن نور الشمس لا يصل إلى الأرض، وتشكل كتلة من الظل والظلام. وكان العراق في العصر الحديث حتى العهد الملكي يمتلك ثلثي نخل العالم، والبصرة فيها نصف نخل العراق تقريبًا. ويعرف أن البصرة مدينة قديمة جدًّا بناها عتبة بن غزوان إبان الفتح الإسلامي في زمن الخليفة عمر بن الخطاب، أي قرابة السنة الرابعة عشرة الهجرية.

واختار مكانها عند التقاء نهري دجلة والفرات وتشكيل نهر شط العرب. وقد كتب عتبة إلى عمر رضي الله عنه «إني قد وجدت أرضًا كثيرة القضة في طرف البر إلى الريف، ودونها منافع فيها ماء وفيها قصباء»، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه «هذه أرض بصرة قريبة المشارب والمراعي والمحتطب». ومعنى البصرة في اللغة العربية الأرض الغليظة ذات الحجارة الصلبة. وهناك دراسات في آثار العراق، حيث يعتقد أن البصرة قديمة جدًّا، خاصة أن فيها، كما يعتقد، شجرة آدم التي أخرجت آدم من الجنة. فجاءت حواء إلى منطقة القرنة، حيث يلتقي دجلة والفرات. وشجرة آدم[٣] ما زالت موجودة في هذا الملتقى منذ آلاف السنين، وتقع قرابة ٥٠ كم شمال مركز مدينة البصرة. ويقال إن نبوخذ نصر بنى مدينة في منطقة البصرة سماها طريدون، إلا أن آخرين اعتبروها أشورية وليست بابلية، ويقال إن فيها سدًّا يحميها من فيضان البحر، ومن ثم فمكانها التقريبي قرب خور الزبير. ويعتقد باحثون آخرون أنها قرب جبل سنام[٤] الذي يبعد عن مدينة الزبير بقرابة ١٣ كيلو مترًا. وهذه المعلومات عن البصرة قبل أن يبنيها عتبة بن غزوان في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، وقد بناها نتيجة الحاجة إلى وجود معسكرات لاستكمال فتح بلاد فارس.

ومن البصرة كانت الحملات الإسلامية إلى إيران وآسيا لنشر الدين الإسلامي. فقد شهدت البصرة في العصر الإسلامي أحداثًا وحروبًا مهمة جدًّا، ففيها معركة الجمل[٥] عام ٣٥هـ، وفيها مسجد الإمام علي رضي الله عنه قائمًا حتى الآن، ومقبرة الحسن البصري والزبير[٦] منذ عام ٣٥ هجرية إلى الآن، وكذلك ثورات عدة، لعل أهمها ثورة الزنج على الدولة العباسية عندما ضعفت. وبعد دويلات المدن أصبحت البصرة ساحة للصراع الصفوي العثماني (الفارسي – التركي).

وما يهمنا هو أن البصرة كانت أكثر المدن العربية كثافة في عدد النخيل وأصنافها، فقد كان النخيل قرابة ٣٠ مليون نخلة، ثم وصل فيها إلى أكثر من ١٥ مليون نخلة في العهد الملكي، وفي عام ١٩٦٨ إلى ١٠ ملايين نخلة، وفيها أكثر من ٧٠٠ نوع من التمر، كما كان مسجلًا في متحف التاريخ الطبيعي التابع لجامعة البصرة.

إلا أن دخول العراق في سلسلة من الحروب أدى إلى تدني زراعة النخيل والاعتناء بها بل التعدي عليها. فبعد أن سحقت الدبابات العراقية مزارع النخيل في البصرة لمواجهة القوات الإيرانية، قرر الرئيس الأسبق صدام حسين حرق أشجار النخيل على جانبي شط العرب، فأحرق في يوم واحد أكثر من

(١) يمر التمر بمراحل عدة للنضج؛ فأولًا الطلع، فالحبابوك، ثم الجمري، ثم الخلال، ثم الرطب، وأخيرًا التمر.

(٢) الشاخات جمع شاخة، أي ساقية متفرعة من النهيرات تصغيرًا للنهر. وهي أسلوب الري في البصرة من شط العرب حسب المد والجزر. وأشهر الشاخات (الساقيات) هي بويب التي جاءت في شعر السياب مرات عدة؛ وهي الساقية التي كانت تمر عند باب البيت الطيني الذي ولد فيه الشاعر، ومن خلال قصائده عرف بويب عالميًّا.

(٣) يعتقد العوام أن الشجرة المعمرة الواقعة عند ملتقى دجلة والفرات، هي شجرة آدم التي أخرجته من الجنة؛ وهذه الشجرة معمرة لا أحد يعرف عمرها.

(٤) جبل وحيد يقع في جنوب البصرة في الصحراء بين الزبير والكويت.

(٥) معركة الجمل بين الإمام علي والسيدة عائشة والزبير.

(٦) أقدم مقبرة للمسلمين في المنطقة يعود تاريخها إلى زمن الإمام علي بعد معركة الجمل، وما زالت موجودة حتى الآن. وفيها الحسن البصري، والزبير، والعديد من أعلام البصرة، والعديد من المبدعين أمثال بدر شاكر السياب، ومحمود عبد الوهاب.

١٥ مليون نخلة، وما زالت جذوعها المحروقة شاهدة على هذه الجريمة البيئية، كما جفف مياه الأهوار[١] في شمال البصرة ليكشف رجال المعارضة الذين كانوا يختبئون خلف القصب لمقاومة الجيش العراقي. وهاتان الكارثتان البيئيتان كانتا السبب الرئيسي لانتقاص عدد النخيل، بل أصبح العراق يفتقر إلى الأنواع الجيدة من التمور بعد أن كان المصدّر الرئيسي للعالم. وكانت مواسم قطع عثوق التمر بعد نضجها تجلب لها مئات البنات اللاتي يجئن للعمل فيما يسمى بالعراق بالجرداغ[٢] وجمعه جراديغ؛ إذ إن كل صاحب إقطاعية كبيرة من النخيل يستخدم هذه المجموعات من النساء للعمل على كبس التمور بعد أن يصنفها، ويدخل عليها محسنات، مثل إخراج النوى من التمر وحشوها بالجوز واللوز وتعطر بالفانيلا والكاكاو، وغيرها من العطور. وتقوم هذه الجراديغ بكبس التمور حسب نوعها، فالذي يصدّر إلى أوروبا يعتنى به ويوضع بعلب أنيقة، وصنف آخر يكبس في التنك للاحتفاظ به إلى موسم الشتاء؛ أما الصنف الثالث الرخيص، فيكبس بخصافه، وهذه مصنوعة من خوص سعف النخيل، ويكبس بها التمر ذو المستوى الوسط لإرساله إلى الدول الفقيرة، وكذلك لاستعماله من قبل الطبقات الفقيرة في العراق، وهناك صنف آخر يستفاد منه كعلف للحيوانات خاصة الأبقار.

وهناك نوع اسمه اليهودي وهو صعب البلع، قد يؤدي إلى خنق الإنسان؛ أما أحسنها وأفضلها، فهو البرحي، وهو الأجود طعمًا وشكلًا من أنواع التمور وباعتراف الجميع؛ حتى إن قانونًا كان قد سنته الحكومة في العهد الملكي لا يسمح بتصدير فسيل البرحي إلى خارج العراق. فعملت إسرائيل ووجهت خيرة رجالها من الموساد لسرقة فسائل البرحي لزراعتها في إسرائيل، للعودة إلى التاريخ الذي ورد في التوراة، فلم تنجح وفشلت كل مساعي الموساد في سرقة فسائل البرحي.

لم تكن نخلة البرحي موجودة بين أنواع النخيل تاريخيًّا، إلا أنه يقال إن أصلها دقلة، أي لا يعرف لها أصل إنما جاءت من النواة، ويطلق عليه في العراق والسعودية «الغيباوي». ومما يذكر أيضًا أن أول ظهور للبرحي كان في قرية كوت زيدان في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي. وكوت زيدان، من قرى منطقة أبو

(١) الأهوار: محمية طبيعية تقع في شمال البصرة، حيث يتباطأ كل من دجلة والفرات، ويشكلان وديانًا مائية واسعة ضحلة، تتكاثر فيها الأسماك، والطيور، والقصب، والبردي، وقصب السكر، وزراعة الأرز، بالإضافة إلى حيوانات بيئية مثل الجاموس والخنازير.

(٢) الجرداغ: المكان الذي يحضّر به التمور ويتم كبسها ونقلها. وكانت تقع بين بساتين النخيل في البصرة، وتنتهي بنهاية الموسم السنوي للتمور.

الخصيب على شط العرب جنوب البصرة. وأخذ اسم البرحي نسبة إلى المنطقة التي ظهر فيها اسم البراحة، أي الأرض الخالية من المباني. وقد أكد الشيخ عبد القادر باش أعيان هذه المعلومة في دراساته المتعددة؛ وقد حافظت عليه الحكومات العراقية المتعاقبة في العهد الملكي، ومنعت تصديره إلى الخارج.

انتقل البرحي إلى المملكة العربية السعودية بواسطة عبد الله بن محمد البسام[1]، وهو أول من نقل فسائل البرحي إلى القصيم. والقصة طريفة جدًّا، كما يذكر في معجم بلاد القصيم الجزء الأول؛ إذ إن عبد الله البسام أخذ فسيلين ولفهما بحصير من الخوص وحملهما على بعير، ثم أخذ بعيرًا آخر يحمل ماءً كافيًا لسقاية الفسيلين، واستغرق السفر من البصرة إلى القصيم قرابة ٣ أسابيع. وكان يسقي الفسيل بشكل مستمر، ولما وصل عنيزة غرس الفسيلين في مزرعته المويهرية، ولكن أحد الفسيلين مات ولم يعش في الأرض، في حين نجح الفسيل الآخر. وجميع البرحي في المملكة العربية السعودية جاء من هذا الفسيل. ويضيف صاحب «تحفة المشتاق في أخبار نجد والعراق» أن آل البسام غرسوا في مزرعتهم عام ١٩٠٥ فسيلًا آخر من نوع السكري جُلب من البصرة أيضًا.

(١) راجع جريدة الشرق الأوسط، لندن، العدد ١١٩٩٠، الاثنين ٢٦ سبتمبر ٢٠١١.

يستمر عطاء نخلة البرحي قرابة ٥٠ عامًا وتعطي النخلة أول إنتاج لها بعد ٤ سنوات من غرس الفسيل، إلا أن أجود الأنواع يكون حينما يكون عمر النخلة ١٥ سنة، وتسمى حين ذاك «النشوه».

ويعتز البصريون بالبرحي ويتغنون به. وأفضل قرية تنتج البرحي على شط العرب هي «العجيراوية»، كقول الشاعر علي العضب في أغنية معروفة:

كهرب يا خلال عجيراوي كهرب
متغاوي بحسنك متغاوي[2]

ونخلة البرحي أجمل شكلًا من بقية النخيل، وتمتاز بسعفها الأخضر طويل الخوص. وكانت هذه النخلة تشكل غابات تحجب الشمس؛ فيتغزل بدر شاكر السياب بعيني حبيبته فيمثل أهدابها بسعف النخيل، فيقول:

عيناكِ غابتا نخيلٍ ساعةَ السحَرْ،
أو شُرفتان راح ينأى عنهما القمر.

(٢) يقول الشاعر إن خلال البرحي أصفر مثل الكهرب، وداخله عسل طبيعي؛ وهذا الخلال يتراقص بحسنه متغاويًا من الغواية. وأنا شخصيًّا أعرف هذه المنطقة، وزرتها مرات عدة، وأكلت من خلالها ورطبها البرحي المشهور عند البصريين.

نخيل البصرة على نهر شط العرب.

مدينة الكوفة عام ١٩٣٢م.

مدينة بغداد.

حرث الزرع، مدينة بغداد.

مدينة الموصل العراقية، نهر دجلة، ويظهر في الصورة بازار لسوق الموصل عام ١٩٣٦م.

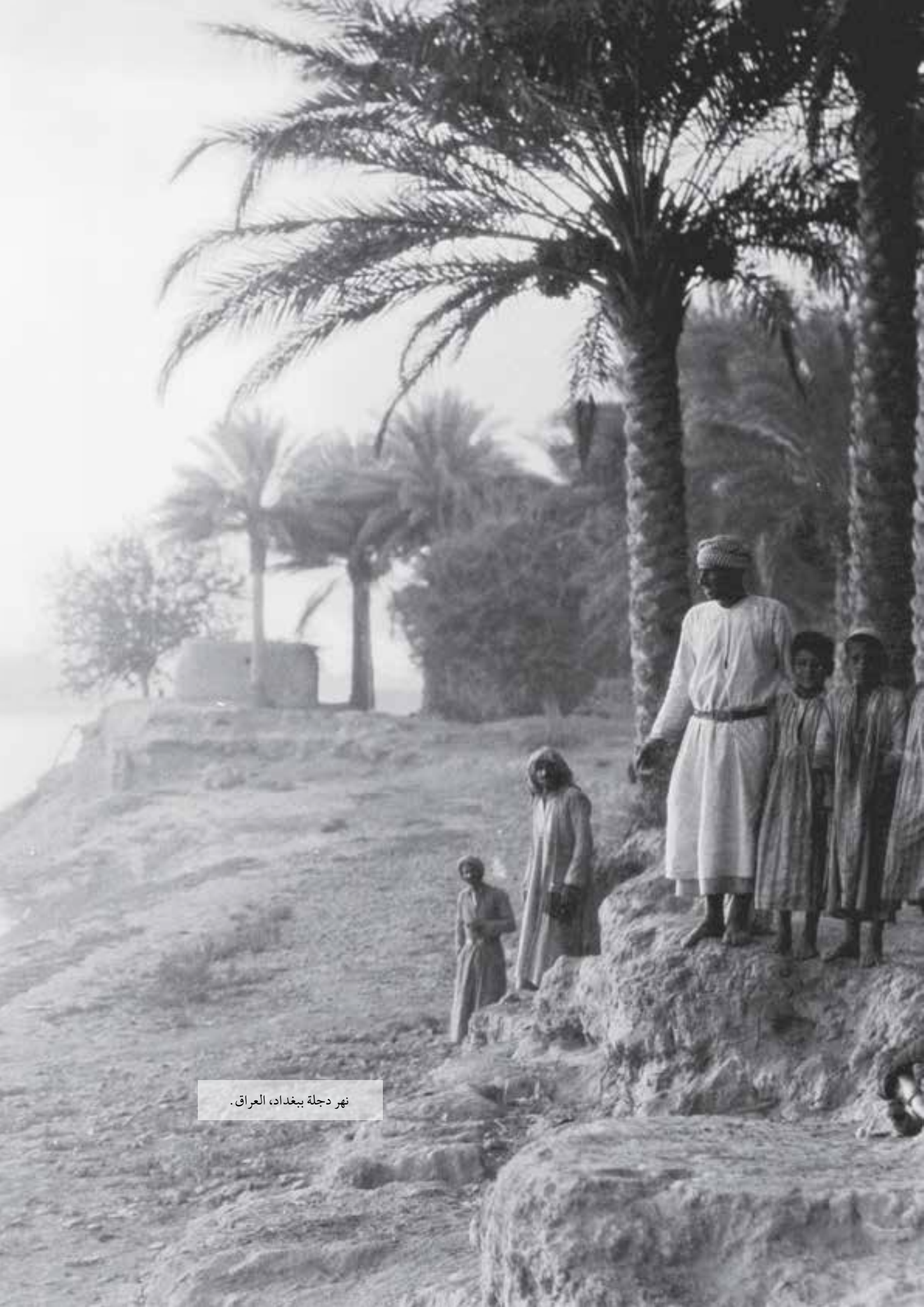

نهر دجلة ببغداد، العراق.

مدينة بغداد عام ١٩٣٢م.

نهر الفرات، مدينة الحلة، العراق.

يتفنن البصريون والعراقيون بشكل عام في إدخال التمر في بعض الحلويات، وكذلك يتم عصره لاستخراج مادة الدبس التي هي مادة غذائية أساسية في المائدة العراقية. والتمر يستعمله الكثيرون لأغراض عدة مثل حلوى المعسل، التي هي خلطة من التمر الجيد الذي يتم تجفيفه قليلًا ويستخرج منه النوى ويحشى بالجوز، ويخلط مع الدبس، والسمسم، ويعطر بمادة الزنجبيل، ويوضع قليلًا على النار ويبرد، فيعتبر وجبة غذائية متكاملة وجيدة للصحة. وهناك صناعات أخرى متعددة يدخل فيها التمر مادة أساسية مثل حلوى «الكليجة»[1] والكيك. ويصنع من التمر الدبس، والخل، وصناعة الخمور؛ إذ كان العراق يشتهر بصناعة العرق من تقطير التمر بعد تخميره. وهناك معامل عدة وعلامات متعددة، إلا أن هذه الصناعة تقلصت كثيرًا مع الأحداث التي شهدها العراق في السنوات الأخيرة.

(١) الكليجة هو الكحك كما يسميه المصريون في العيدين (الفطر والأضحى). وهو عبارة عن عجين محشو بالتمر والجوز ويشوى في الأفران. وهذه عادة لا يتركها العراقيون في كل الأعياد.

أما سعف النخيل، فيتحول الخوص إلى مراوح يدوية (مهاف) أو حصير يجلسون عليه، ومن جريد السعف أيضًا تصنع الأسرّة والكراسي والأقفاص لحمل الفاكهة من المزارع إلى الأسواق.

واقع زراعة النخيل في العراق حتى الآن

بعد أن كان العراق المصدّر الأول للتمر في العالم تراجعت زراعته ومن ثم تصديره، حتى إن الزائر لمدينة البصرة، الذي يرغب في مشاهدة غابات النخيل في مكانها الأصلي التقليدي أي من نهير الخورة[2] بداية الطريق إلى أبو الخصيب[3] وإلى راس البيشه في الفاو، فسيجد أراضي قاحلة صبخة لا وجود لآثار

(٢) الخورة: نهير يتفرع من شط العرب، وهو واحد من عشرات النهيرات التي تتفرع من شط العرب لتسقي الأراضي الزراعية المخصصة للنخيل، وأشجار الفاكهة، والخضراوات.

(٣) أبو الخصيب: أخصب الأراضي وأكثفها لزراعة النخيل والفاكهة والخضراوات، على ضفاف شط العرب جنوب البصرة. وسمي بأبو الخصيب؛ لخصب أرضه.= ووفرة الماء الطبيعي من النهر مباشرة. ومما يشار له أن بدر شاكر السياب من مواليد واحدة من قرى أبو الخصيب.

نهر الفرات، مدينة الحلة؛ النخلة مكوّن رئيسي من المنظر العام للنهر والمدينة.

النخيل ولا إلى زراعة أخرى إلا ما ندر. وهذه المنطقة كانت الأكثر كثافة للنخيل في التاريخ القديم والحديث، أي في النصف الأول من القرن العشرين. وقد تراجع عدد النخيل في هذه المنطقة من ٣٠ مليون نخلة قبل العهد الملكي حتى السبعينيات من القرن الماضي، ووصل عددها إلى ١٣ مليون نخلة في الثمانينيات، ولم يبقَ في هذه المنطقة سوى مليوني نخلة تتفرق على مساحة طولها ١٣٠ كم على طول شط العرب في هذه المنطقة؛ كما تناقصت أنواعها من قرابة ٧٠٠ نوع إلى ٥٠ صنفًا، وإذا لم تتدخل الحكومات في وقف هذا القتل المستمر للنخيل، فلن يتبقى في هذه المنطقة البرحي الذي اشتهرت به هذه البقعة الخصبة بأرضها ومائها، ولا الساير ولا الحلاوي ولا غير ذلك مما لا يزال يقاوم. أما الأسباب التي أدت إلى تدهور زراعة التمور في البصرة، فأهمها:

- تلوث شط العرب بالحرب العراقية الإيرانية والحروب الأخرى، وزيادة ملوحته، وعدم تنظيفه منذ أيام الحرب عام ١٩٨٠، فلم يعد صالحًا حتى للشرب؛ إذ إن شط العرب كان ينظف من الشوائب، وترسب الرمال أتوماتيكيًّا بواسطة حفارات تجول بشكل منتظم ليلًا ونهارًا وخلال ٢٤ ساعة دون توقف من نبعه إلى مصبه، ليكون صالحًا للملاحة والزراعة والشرب في آن واحد. وقد فقد الشط صلاحياته بالكامل؛ إذ لم يعد صالحًا لاستقبال السفن التجارية، ولا يصلح للسقي أو الشرب حتى للاستعمال البشري، بقدر ما وقع فيه من قنابل وصواريخ وسفن محروقة معطلة حتى الآن.
- قرار صدام حسين بحرق ١٥ مليون نخلة في يوم واحد في الحرب مع إيران لكشف الخطوط العسكرية للعدو الإيراني.
- عدم إدخال التقنيات الحديثة في قطفه وتنظيفه وتعليبه وتصديره، حتى أصبحت تجارته غير منافسة لتمور السعودية والإمارات على سبيل المثال، ولهاتين الدولتين الفضل في الحفاظ على تمور البرحي وأصناف التمور الأخرى، بعد أن فقد العراق موقعه وأهميته بالنسبة إلى التمور.

نهر الفرات، مدينة الحلة.

ومن أهم الإشارات التاريخية إلى وجود التمر خارج العراق، ففي الدراسات المختلفة جاءت إشارات عدة معتمدة على وجود النخيل والتمور، لعل من أهمها:

- كانت النخلة مقدسة عند سكان تدمر.
- شمال السودان منطقة من أهم الأماكن لزراعة النخيل تاريخيًّا.
- دلمون بالبحرين تأتي في الأهمية بعد بابل في زراعة النخيل، وخاصة منطقة المحرق.
- عثر على آثار التمر في جزيرة دلما بأبوظبي، وكذلك في منطقة الهامل في مدينة العين، ومنطقة تل أبرق بين الشارقة وأم القيوين.
- أما وادي النيل، فقد ظهرت تسمية النخيل بالهيروغليفية (بتر أو بترت). وقد عثر عليها في مقابر الملوك بأشكال مختلفة ما بين حصير من خوص النخلة يلف واحدة من المومياء أو نخلة صغيرة في مقبرة سقارة؛ علمًا أن مصر الآن تعد أكبر دولة في الوطن العربي لإنتاج التمور؛ أما أجود الأنواع، فتتصدر المملكة العربية السعودية والإمارات إنتاجه وتصديره والاعتناء بأصنافه وتنوع أشكاله وطعمه وما يحشى به من جوز أو لوز حتى الفستق.

نهر دجلة.

ويحمل القفص والجمالة والفيس والدبالة انها لضعت على بالة فتضاعت تقش مدرجها

وتشد مدرجها كلما دانيتي قرنت بالرقعة درهما وقطعة وقلت لها ان رغبت في المشوف المعلم

واشرت الى الدرهم فوجي بالسر المدهم وان ابيت ان تشرحي فخذي القطعة وابيرحي

قالت الي استملاض البدر التم والأبلج الهمر وقالت دع جدالك وبيل عما بدالك فاسطعا

طلع الشيخ وبلدته والشعر وناتج بردته فقالت ان الشيخ من أهل بزوج وهو الذي وشى